مجلة إشكالات ISSN: 2335-1586
مجلد: 07 عدد: 01 السنة 2018 رقم العدد التسلسلي 14

إشكالية وحدة القصيدة العربية في النقد الحديث
دراسة تحليلية نقدية

The Problem of Unity of the Arabic Poem i Modern Criticism
A Critical Analytical Study

دة/ صبيرة قاسي
جامعة البويرة (قسم اللغة والأدب العربي – كلية الآداب واللغات)
sabgaci@hotmail.com

تاريخ الإرسال:2018/03/28	تاريخ المراجعة:2018/03/30	تاريخ القبول:2018/04/02

ملخص البحث

أثارت قضية الوحدة في القصيدة العربية القديمة مواقف متابينة لدى النقاد العرب المحدثين، مابين فئة قائلة بنفيها نفيا مطلقا، وفئة تذهب إلى إثباتها بشكل كلي، وبينهما فئة ثالثة توفق ما بين الموقفين، إذ ترى أن القصيدة القديمة تتوفر على عناصر تبعد عنها سمة التفكك دون أن تمنحها صفة الوحدة الكلية.

ولعل السبب في هذا التباين في المواقف مرده إلى تباين الخلفيات النقدية، إذ يستند الرأي الأول إلى مفهوم الوحدة العضوية كما تجلت في النقد الغربي، في حين أن الرأي الثاني ينطلق من موقف يرى في القصيدة العربية كيانا مغايرا لكيان القصيدة الغربية الذي استند إليه أصحاب نظرية الوحدة العضوية، ومن ثم فإنه من قبيل التعسف إسقاط مفهوم نقدي غربي بشكل كلي على بناء القصيدة العربية القديمة.

الكلمات المفتاحية: القصيدة العربية القديمة – الوحدة العضوية– النقد العربي الحديث.

Abstract:

The unity of the old Arabic poem's case brought different opinions among modern Arabic critics. There are three categories: some denied absolutely, the others affirm it entirely and there is a category that reconciles the two others, the latter one sees that the old poem has components that take away dissociation without giving it total unity characteristics.

Perhaps, the reason behind these opinions' difference is the outcome of the contrast of critical backgrounds. The former group resorts to the notion of unity as it can be seen in western criticism, while the latter argues that the Arabic poem entity is different from that of western poem upon which the advocate of the poem unit based their theory. It will be, therefore, unfair to project western critical concept entirely to the construction of the old Arabic poem.

مقدمة:

ما فتئت القصيدة العربية القديمة تُرمى بشتى التهم الفنية، فقد وُصفتْ بضحالة الخيال تارة، وبانعدام الوحدة تارة أخرى، وكأنها، في نظر ناقديها، تفتقر إلى العمق الرؤيوي، وإلى كل ما يمكن أن يجعلها كيانا فنيا متآزر العناصر، منسجما في كليته. ومن ثم نرى لزاما علينا التوقف عند هذه التهم لعرضها، وكشف دوافعها، ومناقشة أصحابها، والرد عليهم. مع العلم أن نقادا ودارسين آخرين ذهبوا غير هذا المذهب في النظر إلى القصيدة العربية، إذ لم يعدموا فيها وحدة ما تجمع أجزاءها، وتصهرها في بنية واحدة. والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان في هذا السياق هو الآتي:

هل مصدر هذه النظرة إلى القصيدة العربية بنيةُ هذه القصيدة نفسها، أم إن مردها إلى طريقة تلقيها، وخلفيات المتلقين من دارسي الشعر؟

لقد واجه النقدَ العربيَ الحديث إشكاليتان بخصوص مسألة وحدة القصيدة العربية، ترتبط الأولى، كما أشرنا سالفا، ببنية هذه القصيدة ومدى توفرها على هذه الوحدة، بينما تتعلق الإشكالية الثانية بمدى وعي النقد العربي بأهمية عنصر الوحدة كعامل فني.[1]

إن عملنا في هذه الدراسة يقوم على معالجة تينك الإشكاليتين ، وكشف الخلفيات المتحكمة فيهما، دون أن نغفل معالجة قضية الوحدة استنادا إلى المنجزات العلمية المعاصرة خاصة ما يتعلق بعلم النص من مفاهيم إجرائية تتيح لنا معاينة مدى توفر القصيدة العربية على عنصر الوحدة من عدمه.

أولا: غياب الوحدة في القصيدة العربية:

إذا كان موقف الدارسين العرب المحدثين من وحدة القصيدة قد اختلف نفيا وإثباتا لها، فإن القائلين بانتفائها قد تشعبوا شعبتين، تنفي إحداهما هذا العنصر نفيا مطلقا، في حين أن الشعبة الأخرى تقول بوجوده بشكل جزئي.

يأتي على رأس الشعبة الأولى الكاتب عباس محمود العقاد والشاعر نزار قباني، فالعقاد يرى، في معرض مقارنته بين الشعر العربي والشعر الانكليزي، أن القصيدة العربية يقل الارتباط فيها بين المعاني، وذلك لكون الشعر العربي يدور على الحس، على خلاف الشعر الانكليزي الذي يدور على العاطفة والخيال، ومن ثم اتسم هذا الشعر بالوحدة الناتجة عن اشتراك الأبيات في موضوع واحد، أو قيامها على موضوعات متناسقة، ولهذا كان الشعر العربي مرتكزا على وحدة البيت في حين أن الشعر الانكليزي كانت دعامته وحدة القصيدة.[2] ولهذا فإن «الأبيات العربية طفرة بعد طفرة، والأبيات الانكليزية موجة تدخل في موجة لا تنفصل من التيار المتسلسل الفياض».[3] ويفسر العقاد هذا الاختلاف بين الشعرين العربي والانكليزي بكون « الحس لا يربط بين المعاني، وإنما يربط بينها التصور والعاطفة والملكة الشاعرة »[4]، فإذا استند الشاعر إلى الحواس الظاهرة، ووقف عندها لا يجاوزها، فإن إدراكه سيقتصر على المتفرقات، ويُغفل المعاني الواسعة والسوانح ذات الظلال والجوانب، ولذلك فإن طفرة البيت تغنيه عن تماسك الأبيات.[5]

1 إن العقاد ينفي عن الشعر العربي القديم دورانه على العاطفة، وهو لا يقصد العاطفة الفردية التي لا تخلو منها قصيدة من القصائد، وإنما يقصد بها العاطفة الإنسانية التي تتعدى الحدود الضيقة للفرد إلى رحاب الإنسانية. لكن تأمل الشعر العربي يكشف أنه لا يخلو من هذه العاطفة الممتدة، والمعاني الواسعة كما وصفها العقاد، ولعل خير مثال على ذلك معلقة لبيد بن ربيعة، فهي تتعدى القضايا الحسية إلى قضايا إنسانية أهمها قضية الزمن والصراع من أجل البقاء.

والحق أن رأي العقاد ينسحب على جماعة الديوان كلها، فقد هاجم الثلاثة(العقاد وشكري والمازني) القصيدة العربية القديمة، من حيث البناء، مشيرين إلى انعدام

الوحدة الموضوعية والعاطفية والعضوية فيها، وفي ذلك دليل على ضحالة العاطفة والشعور، وانعدام الدافع الحقيقي في النظم، الأمر الذي نتج عنه التكلف، ومن ثم كانت أبيات القصيدة منفصلة بعضها عن بعض، فالشاعر ينظم في نطاق وحدة البيت لا في إطار وحدة كلية تنتظم القصيدة بوصفها بناء واحدا متكاملا،[6]وكأننا بالشاعر يتحرك في مساحات دلالية وشعورية منفصلة. وقد عاب شكري، في مقدمة ديوان "الخطرات"، إعجاب بعض القراء بالأبيات المفردة، وأخذ عليهم النظر إلى البيت على أنه وحدة تامة، مشددا على أن قيمة البيت نابعة من علاقته بموضوع القصيدة، ومن ثم وجب النظر إلى القصيدة بوصفها كلا متكاملا لا عبارة عن أبيات منفصلة، كما أن على الشاعر، أيضا، أن يحرص على وحدة قصيدته وانسجام أجزائها بعضها مع بعض.[7]

وقد يبدو الشاعر نزار قباني أكثر حدة في النظر إلى بناء القصيدة العربية القديمة، فهي، حسبه، لا ترتبط أجزاؤها(أبياتها) إلا ارتباطا مصطنعا، شأنها شأن قطع الفسيفساء، فهي أقرب إلى الزخرف والنقش منها إلى العمل الأدبي الملتحم المتماسك[8]، وهي، إلى ذلك، «مجموعة أحجار ملونة مرمية على بساط، تستطيع أن تزحزح أي حجر منها إلى أية جهة تريد. ومع ذلك تبقى الأحجار أحجارا والقصيدة قصيدة ».[9] ويقابل نزار بين أسلوب بناء القصيدة القديمة والقصيدة الحديثة، فيرى الأولى أقرب إلى بناء القلاع في القرون الوسطى، فثمة مرمر ورخام وأعمدة شامخة، أما الثانية فهي أشبه بحجرة صغيرة وُزع فيها الأثاث بشكل بسيط لا يوحي بالثراء الفاحش، ولكنه يشعرك بالدفء والألفة.[10]

ويمعن الشاعر في التقليل من شأن بناء القصيدة القديمة، راميا إياها بافتقادها إلى ما يربط بعضها ببعض، وذلك في قوله:« القصيدة التقليدية لون من الريبورتاج السريع يجمع فيه الشاعر كل ما يخطر بباله من شؤون الحب والحياة والموت والسياسة والحكمة والأخلاق والدين. كل هذا يعرضه بخطوط متوازية لا تلتقي أبدا».[11] ولذلك كان الشاعر العربي، في منظور نزار قباني، صياد مصادفات، ينتقل بين موضوعات مختلفة لا رابط بينها.[12]

وحين نتأمل هذه الخطرات التي لا ترقى إلى مستوى الآراء النقدية المؤسسة، يتبدى لنا جليا أن الشاعر نزار قباني لم يكن يهاجم القصيدة العربية القديمة، بل كان يصوب سهامه إلى أنصارها من اليمينيين، الذين يعرفهم بأنهم المتعصبون للقديم، المقدسون له. ويقابلهم باليساريين الذين يصفهم بانحياز واضح بكونهم أولئك الفاتحين رئاتهم للهواء النظيف، الثائرين على القيم، المتأثرين بالتيارات الفكرية الجديدة.[13]

أما شوقي ضيف فيبحث في الوحدة العضوية، مشيرا إلى أن القصيدة العربية تفتقدها غالبا، وذلك لاحتذائها النموذج الجاهلي القائم على جمع «أشياء متناثرة غير متلاصقة ولا متلاحمة »[14]، حيث لا يثبت الشاعر على معنى أو موضوع معين من موضوعات قصيدته، مهملا التعمق في كيانه النفسي، أو في القضايا الكونية.[15]

وقبل أن يحكم ضيف على القصيدة العربية بغياب الوحدة العضوية فإنه يسوق مفهوم هذه الوحدة، فهي عنده عبارة عن بناء، وهي التي تجعل القصيدة عملا تاما، وبنية تامة التكوين، فإذا كانت القصيدة مقسمة إلى وحدات هي الأبيات، فإن كل بيت يجب أن يرتبط بما قبله، لتشكل الأبيات بترابطها نسيجا هو القصيدة.[16] وعليه فإن القصيدة التي تتوفر على الوحدة العضوية عبارة عن «كل يتكون من أجزاء، وكل جزء فيه يكون كاملا في نموه، فتزداد معرفتنا وتزداد خبرتنا وتكتمل صورتها في نفوسنا اكتمالا لا يؤديه سوى قصيدة بعينها، قصيدة سواها الشاعر كما يسوّى الكائن الحي تسوية عضوية تامة ».[17] ولذلك كانت هذه القصيدة بوتقة تمتزج فيها إحساسات الشاعر وذكرياته، بطريقة فريدة يتداخل فيها الفكر والشعور أو الوجدان والعقل.[18]

وحين يحاول شوقي ضيف تفسير ما يعده تفككا في بناء القصيدة الجاهلية، فإنه يلجأ إلى الربط الآلي بين الشاعر الجاهلي وحياته اليومية، إذ يرى أن حياة الجاهلي اتسمت بالحركة وعدم الثبات والاستقرار، فهو لم يتعود «التوقف عند شيء وإطالة النظر فيه»، وهذا ما جعل معاني الشعر الجاهلي سريعة، حيث يتم الانتقال في خفة وسرعة من معنى إلى آخر في القصيدة الواحدة، ولعل هذا أيضا ما يفسر وحدة البيت في الشعر الجاهلي، فالقصيدة تتكون من مجموعة من الأبيات شكليا،

ولكن كل بيت مكتف بدلالته في الغالب، وغير مرتبط ارتباطا وثيقا بما يسبقه أو يلحقه إلا نادرا.[19]

وعدم الاستقرار هذا في حياة الإنسان الجاهلي يفسر به شوقي ضيف أيضا سمة أخرى من سمات الشعر الجاهلي، وهي تعدد المواضيع في القصيدة الطويلة، التي « لا تلم بموضوع واحد يرتبط به الشاعر، بل تجمع طائفة من الموضوعات والعواطف لا تظهر بينها صلة ولا رابطة واضحة، وكأنها مجموعة من الخواطر يجمع بينها الوزن والقافية وتلك كل روابطها، أما بعد ذلك فهي مفككة، لأن صاحبها لا يطيل المكث عند عاطفة بعينها أو عند موضوع بعينه».[20]

يضاف إلى ذلك أن بناء القصيدة الجاهلية مرتبط بالمحيط الجغرافي وحياة الانسان الجاهلي فيه، فالقصيدة الجاهلية أشبه بالفضاء الواسع الذي يكتنف الشاعر الجاهلي، فهذا الفضاء غير المحدود يضم أشياء متباعدة لا رابط بينها، ومن ثم كانت القصيدة صورة لكل ذلك، إذ تتوالى فيها الموضوعات متناثرة في غير ما ارتباط أو نظام يجمعها.[21]

وحين يتحدث شوقي ضيف عن الخصائص اللفظية للقصيدة الجاهلية يذهب إلى تفسير غياب الترابط فيها بعنصر جديد لا علاقة له بالعوامل السابقة، ويتمثل ذلك في أن القصائد المطولة كانت تصنع على دفعات، لا دفعة واحدة، الأمر الذي جعل التفكك وتباين العواطف سمة مميزة لها.[22]

إن شوقي ضيف يحاكم الشعر العربي القديم استنادا إلى معايير غربية، على الرغم من استنكافه عن ذلك في كتاب آخر له هو كتاب "الفن ومذاهبه في الشعر العربي"، فحين راح يحاول دراسة الشعر العربي في مراحله المختلفة، بغية أن يضع له «مذاهب فنية تفسر تطوره »[23] واجهته مشكلة المصطلحات التي يصف بها اتجاهات الشعراء الفنية، وعلى الرغم من توفرها في النقد الغربي، فإنه يرغب عنها لعدم ملاءمتها لوصف الشعر العربي، يقول في هذا الشأن:

« ورأيتُ أن أنحاز عن هذا الخليط المضطرب من الألفاظ الغربية التي نقلها بعض نقادنا المحدثين من مثل (كلاسيك) و(رومانتيك) ونحوهما ، فإن من الصعب

أن نحمل أدبنا على مذاهب الأدب الغربي، وهو لا يمت إليه بوشائج تاريخية ولا فنية».[24]

يضاف إلى ما سبق أن شوقي ضيف ينفي الوحدة في القصيدة الجاهلية، حتى في حال دوران الأبيات الشعرية حول موضوع واحد، « فهي تتجاور مستقلا بعضها عن بعض... حتى أصبحت مقدرة الشاعر تقاس ببيت واحد جميل يصوغه في قصيدته»[25]، ومرد هذا الأمر إلى اعتبار اتصال البيت بما قبله عيبا يلحق بالشعر والشاعر، هو عيب التضمين.[26] ولكننا يجب أن ننبه، كما أثبت علي يونس، إلى أن الشعراء لم يحافظوا على استقلالية البيت[27]، ولذلك فإن «الشعر العربي أكثرُه يثبت الترابط بين البيت والذي يليه».[28] كما يجب التنبيه إلى أن العروضيين أنفسهم لم يعدوا الترابط بين الأبيات الشعرية أمرا معيبا دائما، فقد ميزوا نوعين من التعليق : نوعا معيبا وآخر غير معيب.[29]

ومن الذين نفوا الوحدة عن القصيدة العربية القديمة الكاتبُ أحمد أمين، فقد ذهب، متأثرا بآراء بعض المستشرقين، إلى أن «العربي لم ينظر إلى العالم نظرة عامة»[30]، لأن طبيعة العقل العربي تأبى هذه النظرة الشاملة، على عكس العقل اليوناني الذي ينظر إلى العالم بوصفه كلا واحدا يتصل بعضه ببعض، ويخضع لقوانين ثابتة[31]، «وعلى الجملة فالعقل اليوناني...إذا نظر إلى شيء نظر إليه ككل، يبحثه ويحلله، والعقل العربي يطوف حوله فيقع منه على درر مختلفة الأنواع لا ينظمها عقد ».[32] ولهذا فإن الإنسان العربي حين ينظر إلى الشيء فإنه لا يستغرقه بفكره، وهذا ما جعل جمالية الأدب العربي جمالية ناقصة، وآية ذلك أنك حين تقرأ قطعة أدبية من النظم أو النثر، وجدتَها متسمة بضعف المنطق وغياب التسلسل الدقيق للأفكار، وقلة الارتباط بين أجزائها، حتى إنك لو تصرفت في قصيدة من القصائد بالحذف أو التقديم والتأخير، فإن القارئ أو السامع لن يلحظ ذلك.[33] وبسبب من هذا النظر الجزئي الموضعي لا الكلي الشامل فقد أجاد العرب في الأمثال والحكم، لأن هذه لا تتطلب خيالا واسعا ولا بحثا متقصيا، وإنما تتطلب تجربة حياتية

محددة.[34]ومعنى ذلك أن الإنسان العربي غير قادر على استكناه الوحدة التي تنتظم الظواهر التي تبدو غير مرتبطة ظاهريا.

إن المتأمل لهذه الأفكار يدرك أن أحمد أمين ينظر إلى القصيدة الشعرية على أنها بنت العقل وحده، وليست وليدة الوجدان، ومن ثم فإن الربط بين فكر الإنسان وبناء القصيدة يبدو أمرا متعسفا فيه، لأنه يلغي المولد الحقيقي للشعر لدى كل الأمم.

وبالعودة إلى المستشرقين الذين اهتموا بدراسة الشعر العربي، نلاحظ أن كثيرا من هؤلاء وصموا القصيدة القديمة بانعدام الوحدة، ومن هؤلاء إيفالد فاجنر الذي يرى أن القصيدة القديمة تفتقد السياق الفكري داخلها، وهذا لا ينطبق على القصائد الطويلة فقط، وإنما يشمل القصائد القصيرة أيضا كما يرى ألفرد بلوخ. [35] ويستعرض فاجنر آراء المستشرقين في هذا السياق، فيورد على سبيل التمثيل موقف ت.كوالسكي من بنية الشعر العربي القديم، فهي في نظره "بنية جزئية"، فالشاعر العربي مهتم بالتقاط الجزئيات البسيطة، وعلى الرغم من أهميتها فإنها تظل مفتقرة إلى نظرة كلية تلم شتاتها، وهذا ما جعل القصائد العربية القديمة تتسم بسمة جوهرية هي "رخاوة التأليف".[36]

ثانيا: الوحدة الجزئية في القصيدة القديمة:

أما وحدة القصيدة عند محمد غنيمي هلال فيحددها بأنها «إدراك الموضوع بما يتضمنه من أفكار...ثم تنظيم المعاني بحيث تكون مرتبة منسقة لتتجلى وحدتها»[37]، مع الإشارة إلى أن مفهوم الوحدة العضوية متأثر إلى حد كبير نظريا وتطبيقيا نظرة أرسطو إلى وحدة الملحمة والمسرحية[38]، ويتبدى مفهوم هذه الوحدة عنده بكل عناصره في قوله: «ونقصد بالوحدة العضوية في القصيدة وحدة الموضوع ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع . وما يستلزم ذلك في ترتيب الصور والأفكار ترتيبا به تتقدم القصيدة شيئا فشيئا حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية، لكل جزء وظيفته فيها، ويؤدي بعضه إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر».[39] وتتطلب هذه الوحدة العضوية عناصر مهمة تتمثل في:

– منهج القصيدة
– الأثر المطلوب إحداثه في المتلقي.
– الأجزاء التي تحقق هذا الأثر
– الأفكار والصور التي يشتمل عليها كل جزء.

وهكذا تتحرك القصيدة لتحقيق هذا الأثر عن طريق التتابع المنطقي والأفكار والأحداث المتسلسلة.[40]

وهو ينبه إلى وجود إشارات في النقد العربي القديم تقترب من مفهوم الوحدة العضوية، ومن ذلك ما ورد عند ابن طباطبا كقوله:

«وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما ينسق به أوله مع آخره، على ما ينسقه قائله، فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل، كما يدخل الرسائل والخطب نقض تأليفها، فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها، وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها، والأمثلة السائرة المرسومة باختصارها، لم يحسنْ نظمه، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة، في اشتباه أولها بآخرها، نسجا وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجا لطيفا... حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا...لا تناقض في معانيها ولا في مبانيها، ولا تكلف في نسجها».[41]

أما من حيث الكتابة الأدبية فإن غنيمي هلال يشير إلى أن تلك الوحدة قد توفرت في النثر العربي ممثلا في الخطابة، ولكنها غائبة في الشعر في أوائله، أي قبل العصر العباسي، فقد كانت الأبيات تتوالى على نحو يجد مبرراته في حياة البدوي ومشاعره النفسية، إذ يتخيل الشاعر، غالبا، أنه في رحلة يصادف خلالها رسوم منازل الحبيبة، فيقف عندها متذكرا أيامه الخوالي، ثم يعرج على وصف راحلته، متعرضا لما صادفه من مشاق في رحلته تلك، ثم ينتقل إلى غرض القصيدة من مدح أو غيره، ثم ينهي قصيدته غير عابئ بشكل النهاية، ودونما اهتمام بترتيب المعاني.[42] إن الوحدة العضوية تفترض أن تكون أجزاء القصيدة محكمة وصادرة عن جانب وحدة الموضوع ووحدة الفكر فيه، ووحدة المشاعر المنبثقة عنه، وكل هذا غير

متوفر في القصيدة الجاهلية، ومن ثم فلا وحدة عضوية فيها، لانعدام الصلة الفكرية بين أجزائها، فالوحدة فيها خارجية لا رابط فيها إلا من ناحية الخيال والحالة النفسية للشاعر الجاهلي.[43]

ويشير غنيمي هلال إلى أن العرب قد تأثروا بمفهوم الوحدة العضوية كما تجلت لدى أرسطو، ولكن فهمهم لها كان خاصا جدا، فقد فهموا منها مجرد الصلة الشكلية بين أجزاء القصيدة، ولذلك لم يؤثر إدراكهم لمفهوم الوحدة عند أرسطو على بناء القصيدة التقليدي، وحتى إن ابتعد بعض الشعراء المجددين في العصر العباسي عن المقدمة الطللية واستبدلوا بها وصف الخمور والقصور، ولكن هذا التجديد لم يشف عن أي أثر لفكرة الوحدة العضوية الأرسطية.[44] ويرى غنيمي هلال أننا نجد « في دواعي الحياة الجاهلية ما يبرر نفسيا، على سبيل التداعي المحض لا عضويا، وجود نوع من الصلة...الأجزاء في بناء القصيدة القديم »[45]، ولكن هذه المبررات لا تصلح للشعر العربي فيما بعد، خاصة بعد أن تغيرت مظاهر الحياة من البداوة إلى المدنية. وعندما يتعرض غنيمي هلال لسينية شوقي الأندلسية، يعترف بتوفر القصيدة على وحدة نفسية، ولكنها، في نظر الناقد، غير مهمة، ولا تغني عن الوحدة العضوية التي تفتقر إليها القصيدة، وذلك بسبب نظامها التقليدي المحض، وما يعتريها من اضطراب في ترتيب الأفكار.[46]

وممن أثبت للقصيدة القديمة نوعا من الوحدة الباحثُ أحمد كمال زكي، وذلك أثناء دراسته لشعر الهذليين، إذ يرى في قصائدهم وحدة الموضوع، وهو يعلل هذه الوحدة بكون قصائد هؤلاء قصائد قصيرة محدودة الأبيات، وهو يلاحظ أن التباين واضح بين شعراء هذيل وغيرهم من شعراء القبائل الأخرى ممن يميلون إلى التطويل، الأمر الذي يحتم عليهم الانتقال من غرض إلى آخر حتى الوصول إلى الغرض الأصلي للقصيدة. ولذلك فإن معظم الشعراء الذين يطيلون تأتي قصائدهم مفتقرة إلى التركيز أو الوحدة الموضوعية.[47] ولكنه يستثني من ذلك أغلب الشعراء الهذليين في مطولاتهم، إذ يلاحظ أن هذه المطولات يدور كثير منها حول موضوع واحد.[48] وهكذا فإن الوحدة الموضوعية متحققة في جزء من الشعر العربي القديم وغائبة في معظم

هذا الشعر. ولكن معيار الطول ليس صالحا لتفسير غياب الوحدة الموضوعية لأنه لم يحل دون تحققها في شعر الهذليين.

ويسير محمد زكي العشماوي على نهج الآخرين في البحث عن الوحدة العضوية في القصيدة العربية القديمة، مشيرا إلى أن بعض النقاد العرب المحدثين قد عز عليهم أن يتحقق لهذه القصيدة مستوى رفيع في الصياغة الشعرية والصنعة الفنية، دون أن تتوفر على الوحدة العضوية[49]، وهو يرد هذا الغياب إلى «جملة من العوامل تتصل بالبيئة العربية القديمة من حيث طبيعتها الجغرافية ومن حيث حياتها الاجتماعية والاقتصادية».[50] وهو يبدو حريصا على التفريق بين وحدة الشعر المرتبطة بوحدة الفكر والصراع والشخصية الإنسانية، والوحدة العضوية، فهذه تتعلق بوحدة القصيدة التي تتجلى فيها لحظة شعورية ووقف نفسي واحد، أما الأخرى فهي وحدة فكرية مبعثها حياة ذات أبعاد خاصة[51]، وهذا ما اعتبره طه حسين وحدة في القصيدة الجاهلية، وذلك حينما حلل معلقة لبيد بن ربيعة، لكن العشماوي يؤكد أن هذه الوحدة ليست وحدة القصيدة وإنما هي «وحدة الصراع بين الحياة والموت...وحدة الصورة العامة للحياة العربية قبل الإسلام ».[52] إذن ثمة وحدة في القصيدة القديمة، ولكنها ليست الوحدة المطلوبة أي الوحدة العضوية.

ثالثا: الدفاع عن وحدة القصيدة العربية:

ولعل أهم موقف من قضية الوحدة في القصيدة العربية القديمة، هو ذاك الذي فصله الباحث شكري محمد عياد في بحث عنوانه "جماليات القصيدة التقليدية بين التنظير النقدي والخبرة الشعرية"، ففي هذا البحث يوضح الباحث أن القصيدة التقليدية قد عانت في الدراسات النقدية من قياسها على أجناس مختلفة من الشعر الأوروبي،[53] ولذلك وجب التنبيه إلى مبدإ مهم يتمثل في أن «القيم كلها، بما فيها القيم الجمالية، نسبية، خاضعة لظروف الزمان والمكان والثقافة الخاصة »[54]، ومن ثم فإن إخضاع القصيدة العربية لمعايير نقدية خارجة عنها سيكون فيه من التجني عليها الشيء الكثير.

ويلاحظ شكري عياد أن القصيدة العربية لا تعدم البناء المتلاحم القائم على الوحدة، وهذا ما يتجلى في كثير من شعر المتنبي، ففن المتنبي، لا يتجلى في تقسيم

القصيدة إلى فصول(حسب مصطلح حازم القرطاجني)، بقدر ما يتجلى في تلاحم النسج، ذلك أن كل بيت، إضافة إلى اتصاله بما يجاوره، فإنه يشير إلى بيت بعيد قبله أو بعده. ومن ثم فإن المتنبي يدرك جيدا الوحدة في القصيدة العربية التي هي وحدة الحياة نفسها.[55]

ومن الذين انتصروا لوحدة القصيدة القديمة الباحث كمال أبو ديب، الذي يعترف بأن التنوع في هذه القصيدة سمة جوهرية فيها، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة انعدام الوحدة أو التفتت البنيوي، فقد تنطوي القصيدة على وحدة داخلية قادرة على نقل رؤيا الشاعر.[56] وحين ينبري الباحث لتحليل معلقة لبيد بن ربيعة، فإنه يلاحظ أنها إحدى أكثر القصائد العربية القديمة تشابكا وغنى وتعقيدا[57]، ويظهر هذا التشابك في العلاقات بين مكوناتها، ومثال على ذلك أن « النسق الناشئ من المكونات " الناقة . الأتان . البقرة " والنسق الناشئ من المكونات "الشاعر . نوار . الصرْم " يتقاطعان ويتشابكان في نقاط على فترات متباعدة الأطوال»[58]، والأمر نفسه ينطبق على العلاقة بين المكونات الأخرى في المعلقة.

ما يمكن ملاحظته، بعد إيراد مواقف بعض النقاد المحدثين من قضية الوحدة في القصيدة العربية، أن فئة قليلة انتصرت لهذه الوحدة وقالت بوجودها، لكن فئة أخرى رأت في البناء الفني لهذه القصيدة مجرد انعكاس للحياة الاجتماعية والبيئة الجغرافية، كما أن فئة ثالثة قد التبست عندها الوحدة العضوية بوحدة الموضوع ومن هؤلاء محمد غنيمي هلال[59]، وهذا ما تجلى لنا أعلاه في كلام الدارس نفسه، ثم إنه من الحيف أن تعالج القصيدة العربية في ضوء النظريات الغربية بشكل مغالى فيه، بحيث تُرغَم هذه القصيدة على أن تستجيب لشروط فنية مستمدة من أدب نما في بيئة ثقافية مختلفة عن تلك التي احتضنت نمو القصيدة العربية. كما أن هؤلاء يغفلون القصائد القديمة التي تنحو منحى سرديا، وهي قصائد ذات وحدة ونمو متدرج واضح للعيان، ولعل خير مثال لها قصيدة الحطيئة التي مطلعها[60]:

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل بتيهاء لم يعرفْ بها ساكن رسْما

فهذه القصيدة تنمو نموا متدرجا تدرج حركة السرد فيها لتنتهي بانفراج أزمة أب وأبنائه يعانون الجوع ن ثم يبتلون بضيف يريد القرى.

كما أن استثمار منجزات علم النص يجعلنا نقف موقفا منصفا من قضية الوحدة في القصيدة العربية، ومثال ذلك ما يقدمه كلاوس برينكر حول مفهوم "الموضوع"، فما يمنح النص نصيته ووحدته أنه يتيح لنا أن نكتشف موضوعه أو نستخلصه منه، وذلك باعتبار الموضوع نواة للمضمون تظهر في جزء معين من النص(العنوان أو جملة معينة)، أو يتم تجريدها من مضمون النص.[61] ويعد مفهوم موضوع النص أو تيمة النص ومفهوم بسط الموضوع مفهومين إجرائيين يتيحان لنا الكشف عن البنية الموضوعية للنصوص وجعلها شفافة.[62] ويعرف برينكر بسط الموضوع حول المحتوى الكلي للنص " بأنه ربط أو ائتلاف بين مقولات عقلية محددة تحديدا منطقيا ودلاليا. وتقدم العلاقات الداخلية للمضامين أو الموضوعات الجزئية المعبر عنها في أجزاء نصية مفصلة...حول النواة الموضوعية للنص(موضوع النص)(مثل التخصيص والتعليل...إلخ)".[63]

وإذا ما حللنا القصيدة العربية وفق هذين المفهومين الإجرائيين فإننا نقف على الانسجام الكبير بين أجزائها، وهو انسجام دلالي يحقق لها وحدة قد لا تكون ظاهرة ، ولكنها تحتاج إلى إعمال الفكر وتوليد الروابط انطلاقا من المفاهيم التي توفرها الحقول العلمية المهتمة بانسجام الخطاب ووحدته.

خاتمة:

لقد كان الموقف المنكر لتوفر القصيدة العربية القديمة على الوحدة ناتجا عن تأثر واضح بآراء المستشرقين ونظريات النقد الغربي، وهذا ما استدعى موقفا مناقضا يرى أن القصيدة العربية القديمة لا تفتقر إلى الوحدة التي تضم أجزاءها بعضها إلى بعض، شريطة أن تكون هذه الوحدة مستمدة من داخلها، لا مفروضة عليها فرضا، فالشروط المختلفة التي اكتنفت هذه القصيدة مباينة للشروط التي أنتجت الآداب الأخرى، وهذا الاختلاف لا بد أن ينتج بناء فنيا مختلفا، ولذلك فمن التعسف النقدي أن نحاكم القصيدة العربية استنادا إلى معايير غربية. وقد لاحظنا موقفا ثالثا وسطا

بين القول بالانتفاء الكلي للوحدة في القصيدة العربية والإثبات القاطع لوجودها في هذه القصيدة.

إننا لا نعدم عناصر الوحدة في القصيدة العربية القديمة، خاصة تلك التي تنهج نهجا سرديا، كما أن استثمار المنجزات العلمية المعاصرة ، مما له صلة بالعلوم التي تعالج النص في علاقاته الداخلية التي تحقق له الانسجام والاتساق، كفيل بأن يضيء القصيدة العربية إضاءة جديدة تتيح لنا أن نرى ما تحت التفكك الظاهري من وحدة وانسجام تنطوي عليه هذه القصيدة.

هوامش:

[1] ينظر، عادل سليمان جمال، الوحدة العضوية في القصيدة العربية القديمة، ضمن كتاب: دراسات عربية وإسلامية، مكتبة الخانجي، القاهرة 1982، ص313.

[2] ينظر، عباس محمود العقاد، ساعات بين الكتب، مؤسسة هنداوي لتعليم والثقافة، القاهرة 2014،ص 445.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[5] ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[6] ينظر، محمد زغلول سلام، النقد الأدبي الحديث، أصوله واتجاهات رواده، منشأة المعارف، الإسكندرية 1981، ص234.

[7] ينظر، عبد الرحمن شكري، ديوان عبد الرحمن شكري، مؤسسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة 2014، ص263.

[8] ينظر، نزار قباني، الشعر قنديل أخضر، منشورات نزار قباني، بيروت، 1963، ص30.

[9] المرجع نفسه، ص ص 31، 32.

[10] ينظر، المرجع نفسه، ص 31.

[11] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[12] ينظر المرجع نفسه، ص 33.

[13] ينظر المرجع نفسه، ص ص29، 30.

[14] شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، ط9، القاهرة، ص 154.

[15] ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[16] ينظر المرجع نفسه، ص 153.

[17] ينظر المرجع نفسه، ص 154.

[18] ينظر المرجع نفسه، ص 153.

[19] ينظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي،ج1(العصر الجاهلي)، دار المعارف، ط11، القاهرة، ص224.

[20] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[21] ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[22] ينظر المرجع نفسه، ص 226.

[23] شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، ط11، القاهرة، ص 7.

[24]ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[25] شوقي ضيف، في النقد الأدبي ، ص 155.

[26] ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[27] ينظر علي يونس، دراسات عروضية، دار غريب للنشر والتوزيع، القاهرة 2005، ص74.

[28] أحمد كشك، التدوير في الشعر العربي، دار غريب للنشر والتوزيع، القاهرة 2003، ص 9.

[29] ينظر المرجع نفسه، ص ص 9، 10.

[30] أحمد أمين، فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط11، القاهرة 1975، ص40.

[31] ينظر المرجع نفسه، ص ص 41، 42.

[32]المرجع نفسه، ص44.

[33] ينظر المرجع نفسه، ص42.

[34] ينظر المرجع نفسه، ص64.

[35] ينظر إيفالد فاجنر، أسس الشعر العربي الكلاسيكي، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة 2008، ص25.

[36] ينظر المرجع نفسه، ص236.

[37] محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط6، القاهرة 2005، ص201.

[38] ينظر المرجع نفسه، ص373.

[39]المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[40] ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[41] ابن طباطبا، عيار الشعر، القاهرة 1956، ص ص 126، 127.

[42] ينظر محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص201.

[43] ينظر المرجع نفسه، ص 374.

[44] ينظر المرجع نفسه، ص 205.

[45]المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[46] ينظر المرجع نفسه، ص ص 375، 376.

[47] ينظر أحمد كمال زكي، شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، دار الكاتب العربي للطباعة وانشر، القاهرة 1969، ص ص247، 248.

[48] ينظر المرجع نفسه، ص246.

[49] محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1979، ص122.

[50]المرجع نفسه، ص 125.

[51] ينظر المرجع نفسه، ص145.

[52]المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[53] ينظر شكري محمد عياد، جماليات القصيدة التقليدية بين التنظير النقدي والخبرة الجمالية، فصول، المجلد6، العدد2، يناير/فبراير/مارس 1986،ص 59.

[54]المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[55]ينظر المرجع نفسه، ص68.

[56] ينظر كمال أبو ديب، الرؤى المقنعة، نحو نموذج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ، ص ص 50،51.

[57] ينظر المرجع نفسه، ص47.

[58] المرجع نفسه، ص57.

[59] ينظر عادل سليمان جمال، الوحدة العضوية في القصيدة العربية القديمة، ضمن كتاب دراسات عربية وإسلامية، ص317.

[60] الحطيئة، ديوان الحطيئة برواية ابن السكيت، دراسة وتبويب مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت 1993، ص ص 178، 179.

[61] ينظر كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة 2005، ص73.

[62] ينظر المرجع نفسه، ص72.

[63] ينظر المرجع نفسه، ص79.